مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الحادية عشرة

عنوان المحاضرة: (تحليل قصيدة مالك بن الريب)

ولابدّ أن نقف عند قصيدة تعدّ من روائع قصائد رثاء الذات في أدبنا العربي، أنّها قصيدة مالك بن الريب الشاعر البدوي الذي أحسّ بدنو أجله وهو في جيش الفاتحين في إحدى قرى خراسان.

نص القصيدة:

١- ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بجنب الغضا أُزجي القلاص
٢- فليت الغضا لم يقطع الركب وليت الغضا ماشى الركاب ليالا
٣- لقد كان في أهل الغضا لو دنا مزار ولكنّ الغضا ليس دانيا
٤- ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفّان
٥- وأصبحت في أرض الأعادي أراني عن أرض الأعادي قاصيا
٦- دعاني الهوى من أهل ودّي بذي الطبسين فالتفت ورائيا
٧- أجبت الهوى لمّا دعاني بزفرة تقنّعت منها . أن أُلام . ردائيا
٨- أقول وقد حالت قرى الكرد جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
٩- إن الله يرجعني من الغزو لا وإن قلّ مالي طالباً ما ورائيا
١٠- تقول ابنتي لمّا رأت طول سفارك هذا تاركي لا أُباليا
١١- لعمري لئن غالت خراسان لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
١٢- فإن أنج من بابي خراسان لا إليها وإن منّيتموني الأمانيا
١٣- فلله درّي يوم أترك طائعا بنيّ بأعلى الرقمتين وماليا
١٤- ودرّ الظباء السانحات عشية يخبّرن أنّي هالك من ورائيا
١٥- ودرّ كبيري اللذين كلاهما عليّ شفيق ناصح لو نهانيا
١٦- ودرّ الرجال الشاهدين تفتكي بأمري إلّا يقصروا من وثاقيا
١٧- ودرّ الهوى من حيث يدعو ودرّ لجاجاتي ودرّ انتهائيا
١٨- تذكّرت من يبكي عليّ فلم سوى السيف والرمح الرديني باكيا

١٩- واشقر محبوك يجرّ عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

٢٠- ولكن بأكناف السمينة نسوة عزيز عليهنّ العشية ما بيا

٢١- صريع على أيدي الرجال يسوّون لحدي حيث حمّ قضائيا

٢٢- ولمّا تراءت عند مرو منيتي وحلّ بها جسمي وحانت وفاتيا

٢٣- أقول لأصحابي ارفعوني فإنّه يقرّ بعيني أن سهيل بدا ليا

٢٤- فيا صاحبي رحلي دنا الموت برابية إنّي مقيم لياليا

٢٥- أقيما عليّ اليوم أو بعض ولا تعجلاني قد تبيّن ما بيا

٢٦- وقوما إذا ما استلّ روحي لي السدر والأكفان عند فنائيا

٢٧- وخطّا بأطراف الأسنّة وردّا على عيني فضل ردائيا

٢٨- خذاني فجرّاني بثوبي إليكا فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

٢٩- وقد كنت عطّافاً إذا الخيل سريعاً لدى الهيجا إلى من دعائيا

٣٠- وقد كنت صبّاراً على القرن وعن شتمي ابن العمّ والجار وانيا

٣١- فطوراً تراني في ظلال ونعمة وطوراً تراني والعتاق ركابيا

٣٢- ويوماً تراني في رحىً تخرّق أطراف الرماح ثيابيا

٣٣- وقوما على بئر السمينة بها الغرّ والبيض الحسان الروانيا

٣٤- بأنّكما خلّقتماني بقفرة تهيل عليّ الريح فيها السوافيا

٣٥- ولا تنسيا عهدي خليليّ تقطّع أوصالي وتبلى عظاميا

٣٦- ولن يعدم الوالون بثّاً ولن يعدم الميراث منّي المواليا

٣٧- يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلّا مكانيا

٣٨- غداة غد يالهف نفسي على إذا أدلجوا عنّي وأصبحت ثاويا

٣٩- وأصبح مالي من طريف لغيري وكان المال بالأمس ماليا

٤٠- فياليت شعري هل تغيّرت رحا المثل أو أمست بفلج كما هيا

٤١- إذا الحي خلّوها جميعاً بها بقراً حمّ العيون سواجيا

٤٢- رعين وقد كاد الظلام يجنّها يسفن الخزامى مرّة والاقاحيا

٤٣- وهل أترك العيس العوالي بركبانها تعلو المتان الفيافيا

٤٤- إذا عصب الركبان بين عنيزة وبولان عاجوا المبقيات النواجيا

٤٥- فياليت شعري هل بكت أُمّ كما كنت لو عالوا نعيّك باكيا

٤٦- إذا مـت فاعتـادي القبـور		علـى الـرمس أُسـقيت السـحاب
٤٧- علـى جدث قد جرّت الـريح		ترابـاً كسـحق المرنبـاني هابيـا
٤٨- رهينـة أحجار وترب تضمّنت		قراراتهـا منّـي العظـام البواليـا
٤٩- فيـا صـاحباً إمّـا عرضـت		بنـي مـازن والريـب أن لا تلاقيـا
٥٠- وعـزّ قلوصـي فـي الركـاب		سـتفلق أكبـاداً وتبكـي بواكيـا
٥١- وأبصرت نار المازنيات موهناً		بعليـاء يثنـي دونهـا الطرف دانيا
٥٢- بعـود النجـوج قـد أضـاء		مهاً فـي ظـلال الدرّ حوراً جوازيا
٥٣- غريب بعيد الدار ثاو بقفرة		يـد الـدهر معروفـاً بـأن لا تـدانيا
٥٤- أُقلّب طرفي حول رحلي فلا		بـه مـن عيـون المؤنسات مراعيا
٥٥- وبالرمـل منّـا نسـوة لـو		بكـين وفـدّين الطبيـب المـداويا
٥٦- ومـا كـان عهد الرمل عندي		ذميمـاً ولا ودّعـت بالرمـل قاليـا
٥٧- فمنهنّ أُمّي وابنتاي وخالتي		وباكيـة أُخـرى تهـيج البواكيـا

تحليل القصيدة:

قائل القصيدة هو الشاعر مالك بن الريب من بني مازن نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، بدأ حياته مع الفتّاك واللصوص، ثمّ مسك ـ كما قيل ـ فأمّنه بشر بن مروان، ولمّا رآه سعيد بن عثمان بن عفّان أعجب به لمروءته وفروسيته، وينقل لنا القالي محاورة جرت بينهما:

قال له سعيد: ويحك مالك؟ ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟

قال: أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الاخوان.

قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك؟ أتكفّ عمّا تفعل وتتبعني؟

قال: نعم، أصلح الله الأمير، أكفّ كأحسن ما كفّ أحد، فاستصحبه، وأجرى عليه خمسمائة دينار في كلّ شهر.

وتعدّ قصيدته اليائية هذه من روائع الشعر العربي، فهي أنموذج فنّي عال في رثاء النفس، وتصوير الأحاسيس بدنو الأجل. وقد قيل إنّه قالها حين حضرته الوفاة،

وقيل انّه قالها قبل موته بسنة، وفصّل بعضهم في سبب وفاته. وذكر ابن عبد ربّه إنّه حين خرج مع سعيد بن عثمان بن عفّان، وكان يوماً ببعض الطرق أراد أن يلبس خفّه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلمّا أحسّ بالموت استلقى على قفاه، ثمّ أنشأ يقول. ويبقى المهمّ في هذه الروايات أنّ الشاعر قال القصيدة وقد أحسّ بدنو أجله.

الأبيات ١ ـ ٥:

بدأ الشاعر قصيدته بالتشوّق إلى ديار أهله وأحبّته، وتمنّى لو أنّه يستطيع أن يبيت ليلة فيها، يمارس حياته الاعتيادية، يسوق الإبل، شأنه شأن فتيان قبيلته، ويشتدّ شوقه إلى تلك الديار فيبرز اسمها الغضا بشكل إيقاع مؤلم موجع من خلال تكرار اللفظ ست مرّات في الأبيات الثلاثة الأُولى، وهو يتمنّى أن يكون الغضا قريباً منه ليزوره، أو أنّه لم يبرح الغضا، ولم تقطعه ركاب المسافرين، وحين يشعر إنّها أُمنية بعيدة يحاول اقناع نفسه وتذكيرها بأنّه هو نفسه قد اختار البعد عن ديار أهله، حين اختار طريق الهداية، وانخرط مع جيش الفاتحين. وقد ترك تكرار الغضا ست مرّات إيقاعاً مكثّفاً لحالة الحزن والأسى وتذكّر الديار.

الأبيات ٦– ٩:

وهنا يصوّر الشاعر لوحة فنّية جميلة ما تركه تذكّر أهله وحنينه إليهم من أثر في نفسه، لقد أُثيرتْ عواطفه ودمعت عيناه، واستحيا من موقفه فحاول إخفاء دموعه بأن تقنع بثوبه، وصحب هذا المشهد تصاعد زفرة عالية تظهر حزنه وتشوّقه. وحين يحسّ الشاعر بوطأة البعد والفرقة والغربة يعاهد نفسه ألّا يغادر دياره إن سلم من هذه الرحلة، وأنّه سيقنع بالقليل الذي عنده.

الأبيات ١٠ ـ ١٧:

إنّ من يكون في أرض غريبة بعيدة عن أهله، ويتشوّق إليهم يتذكّر في لحظات بعض مواقف الحبّ والمودّة التي تربطه بهم، والتي بقيت راسخة في مخيّلته، فابنته تحنن قلبه لئلّا يبعد عنهم، خشية أن يهلك ويتركها يتيمة، ويتعجّب من نفسه كيف اختار بإرادته ترك دياره، كما يعجب من قدرته على مفارقة أبويه الكبيرين، ويتساءل

بعد ذلك كيف استطاع البعد عن أهله واخوانه ممّن كانوا يشهدون أيّامه ونشاطه. وهذه الأبيات صور رائعة للإحساس بالأُبوّة والبنوّة معاً والارتباط بالأهل والديار والحنين إليهم.

الأبيات ١٨ ـ ٣٣:

هنا ينتقل الشاعر واصفاً حاله وهو يخشى دنو أجله، فإذا كانت صور أهله الجميلة وذكرياتهم تتراءى في ذهنه فإنّه سرعان ما يعود إلى الحديث عن غربته، ماذا يحدث له إن أجله حان فيها؟ لن يبكي عليه أحد سوى سلاحيه اللذين لازماه دائماً، سيفه ورمحه، وفي هذه الصورة إشارة رائعة إلى فروسيته وشجاعته، لا يبكي السيف إلّا لفراق الفارس البطل، ويشاركهما في البكاء فرس أصيل كان رفيق الشاعر في المعارك وكان شاهداً على بطولته وبلائه، وإنّه لن يجد ندّاً لمالك ـ بعد وفاته ـ يحلّ محلّه ويأخذ بعنانه إلى الماء، فكيف بمن يصحبه في ساحة المعركة؟ إنّه أسف البطل على مفارقة حياة البطولة والفروسية.

وقد أكّد الشاعر هذه الصورة مرّة أُخرى حين خاطب صاحبيه في البيت (٢٨) بأن يحفرا قبره بأطراف الأسنّة، مخالفاً ما هو معروف من حفر القبور بأدوات الحفر المتداولة، لأنّه فارس مقاتل، فقبره يجب أن يحفر بما يليق بمكانته وحياته، ومع هذا فإنّ ألمه على ما سيؤول إليه حاله إذا فارقت روحه الجسد كبيراً، هذا الألم يصوّر له حاله، وهو يجرّ إلى مثواه الأخير، فيذكّر صاحبيه بأنّه كان في حياته أبياً صعب القياد، فارساً يكرّ على الخيل إذا أدبرت، ويسرع إلى الحرب إذا اشتدّت. وبذا يعدّد لنا مالك مآثره وبطولاته ممّا يبعد نفسه عن الجزع لدنو الأجل.

أمّا في ديار أهله فإنّ الشاعر يسرح بمخيّلته مصوّراً ما سيحدث حين يبلغ نعيه قومه، فتبكيه نسوة يعزّ عليهنّ فراقه.

لقد عُرف الرثاء على أنّه تعداد لمآثر المرثي ومفاخره، ومالك هنا هو الراثي والمرثي معاً لذا يعدّد مآثر نفسه، فهو جلد في الحرب، عفيف في السلم، لا يشتم ابن

عمّه ولا يؤذيه، وحياته بين يومين يوم يتنعّم بالراحة مع صحبه وملاعبة خيله، ويوم يصول ويجول في ساحة الحرب.

الأبيات ٣٤ فما بعدها:

يعود الشاعر إلى مخاطبة رفيقيه اللذين يتوقّع أن يقوما بدفنه أو تبليغ خبره إلى أهله. فيوصيهما بأن يقفا عند بئر السمينة حيث مجتمع بنات قومه، لينبئهنّ بأنّه مات غريباً، وقد أُهيل عليه التراب في أرض بعيدة مقفرة، فيتخيّل حاله وهو مفرد غريب وحيد حين يتركه رفاقه، ليبلغوا خبر وفاته لأهله فيبكي على نفسه متذكّراً مشاهد من حياته اليومية في ديار أهله، وكيف سيفتقدونه وأوّلهم أُمّه، ويتساءل تساؤل المقرّ بأنّها ستبكي عليه كما أنّها لو ماتت قبله لأشتدّ بكاؤه عليها. ويوصي أُمّه لتزور القبور وتذكر موته النائي الغريب.

ثمّ تلحّ عليه مرّة أُخرى صورة بلوغ خبر نعيه إلى مسامع أهله، وكيف يصيبهم الحزن، فتنفلق أكبادهم، وتبكيه الباكيات، ويتخيّل هذه الصورة فيرسمها ببعدين:

البعد الأول: بعد أحبّته وأهله، وقد بلغهم نعيه، ومع شدّة حزنهم وبكائهم عليه تتمنّى نسوة من أهله أن لو كنّ قريبات منه لفدّين الطبيب المداوي علّته، ويتخيّل بينهنّ وجه أُمّه وابنتيه وخالته، وامرأة رابعة لم يسمّها وإنّما وصفها بأنّها تهيج البواكيا، وهذه قد تكون أي امرأة من قومه أحزنها فقده وقد تكون زوجه، فهي تعول، وتبكي، وتهيج الباكيات إذا هدأ بكاؤهن.

أمّا البعد الثاني للصورة: فهو وصف قبره المفرد الغريب في أرض مقفرة موحشة غريبة.

وبعد، فإنّ هذه القصيدة وإن كانت لا تصوّر أحداث الفتوح والجهاد إلّا أنّها منبثقة من ظروفها، إذ أنّ انخراط الشاعر في جيش سعيد بن عثمان بن عفّان وسيره في أراض غريبة عن دياره أدخلت في نفسه مشاعر الشوق والحنين، وتجسّدت

أحاسيسه بشكل مثير للعاطفة، حين شعر بدنو أجله مصوّراً لنا الغربة بكلّ آلامها ووحشتها، وجسّد لنا أيضاً الحنين إلى الأهل والديار بكلّ ما يحمله من مشاعر الرقّة والحبّ والألفة، وعبّر عن هذين الموقفين أروع تعبير، جعل القارئ يتخيّل من خلال القصيدة صورة الفارس البطل المقاتل، وصورة المحبّ المتشوّق إلى أهله وموطنه. ومع ذلك نلاحظ خلو القصيدة من كلّ ما يتعلّق بمعاني الفتوح والجهاد، ولم يحاول الشاعر أن يسلّي نفسه بالأجر والثواب كما يتوقّع، وكما فعل المجاهدون، ولم ينقل لنا أمله في عدّه شهيداً، أو رغبته في الشهادة كما فعل عبدالله بن رواحة، لكن الملاحظة ليست غريبة كلّ الغرابة إذا تذكّرنا شخصية مالك بن الريب قبل انخراطه في جيوش سعيد بن عثمان، إذ لم يكن له رابط ديني قوي بالجهاد، والمجاهدين، وكلّ ما حقّقه له نسكه وتوبته هو انخراطه في هذا الجيش، فهو يختلف عن حال المجاهد الذي صرف نفسه وحياته للجهاد بفكره وسلوكه.

وتبقى صورة مالك بن الريب الإنسان الذي أحسّ بدنوّ أجله، فصوّر مشاعره الرقيقة إزاء موطنه وحنينه إلى أهله وأحبّته.